ألكنيسة الطقسيّة متى نبنيها ؟

بقلم ألأب سرهد جمّو

إن هويّة اي شعب مسيحي انما تتجلى بأفصح صورة اذ يصلّي . لأن الصلاة الطقسيّة ، بالأضافة الى كونها إرتقاء النفس الى الله ، هي كذلك - لا سيّما في صيغتها الرسمية - تعبير عن الهوية الثقافية التي ينتمي اليها ذلك الشعب . ذلك لأن الصلاة الطقسية تستخدم لغة وموسيقى وحركة وهندامًا وأثاثًا وبناية ذات طابع معيّن . وكل هذه مظاهر ثقافية ، تنسجم وتتلاحم مع بعضها لكي تعبّر عن مفاهيم ذلك الشعب وتقاليده وروحيّته . وتحتلّ بناية الكنيسة ، في هذه المجموعة من العناصر الثقافية ، مكانة بارزة ، لأنها تجسيد ثابت لكل تلك المعاني ، قائم أمام عين كل ناظر ، حتى اصبحت البناية نفسها تسمى بنفس التسمية التي تطلق على الشعب اعني « الكنيسة » .

نشوء بناية ألكنيسة :

إن هندسة الكنيسة ، بكونها بناية ، قد تطوّرت بتطور الشعب المصلّي فيها وتطور ظروفه عاكسة اوضاعه وطريقة صلاته . فقد استخدم المسيح وتلامذته عليّة بيت في اورشليم للعشاء الفصحي الاخير (مرقس ١٤/١٢-١٦) . ويتحدث بولص الرسول عن « الكنيسة » التي في « دار » بعض المؤمنين من اهل قورنثس وقولسي (١ قور ١٦/١٩) . غير أنه لاحقًا ما ان سمحت الظروف ، حتى شُيّدت بنايات خاصة لكي تُستخدم للكرازة والصلاة فحسب .

أما في بلاد ما بين النهرين فأول ذكر للكنيسة ، بمعنى البناية المخصصة للصلاة والقدسيات ، إنما يأتي في حوليات تاريخ الرها ، حيث يرد الحديث عن الطوفان الذي حدث سنة ٢٠١م ، أنّ المياه ... « دمرت قصر ملكنا الكبيّر الرائع الجمال واكتسحت كل ما وجُد في طريقها من بنايات المدينة الجميلة الخلابّة وكل ما كان قريبًا من النهر جنوبًا وشمالاً . وبالاضافة الى ذلك فقد سببت الأذى لهيكل كنيسة المسيحيين . وفي هذا الحادث توفي اكثر من الفي شخص ، بينما كان الكثيرون منهم نيامًا في الليل ، ودخلت المياه فجأة عليهم واختنقوا ... » (عند سيگال ، الرها ، ص ٢٤-٢٥) .

فواضح إذن انه منذ القرن الثاني ، بينما كان الغرب المسيحي يعاني الضغط من السلطة

المدنية فيتعذر عليه بناء الكنائس ، كانت بلاد ما بين النهرين تتمتع بنوع من الحرية فشرعت في بناء الكنائس لتقيم فيها الصلاة والمراسيم الطقسية .

أهمية الهندسة الطقسية في بناء الكنائس :

إن الهندسة المقصودة هنا ليست تلك المرتبطة بالمفهوم الجمالي او الانسجام الفنّي ، ولكنها تلك التي ترتبط بأداء المراسيم الطقسية والتعبير عن معانيها - ولا بُد من الانتباه هنا الى الفكرة الأساسية المُضمَرة في هندسة الكنائس الشرقية . وهي التعبير عن مفهوم الفداء . اي ان كلمة الله نزل من السماء وأتـم الخلاص في مدينة اورشليم وما حولها ، ثم صعَد الى السماء وجلس عن يمين الله الآب . ذاك جوهر الفكرة الاساسية : نزول من السماء الى اورشليم ثم عودة اليها . نزول يؤدّي الى اشتراك ابن الله ببشريّة الناس . ثم صعود يؤدّي الى رفع البشرية الى مستوى المشاركة بالنعم الإلهية .

هذا المفهوم ، الذي هو خلاصة اللاهوت المسيحي ، هو موضوع القدّاس الإلهي بعينه . وللكشف عن مضمونه شُكلت الحركات والمراسيم الطقسية ، وبناءً عليه هُندست الكنائس .

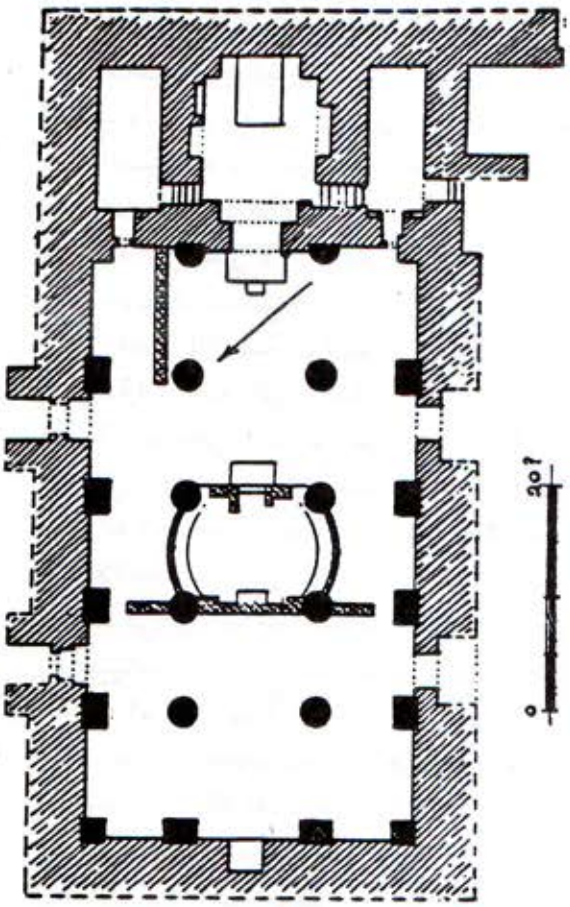

من آثار مدينة الحيرة / كنيسة من القرن السادس

التشكيلة الأساسية في بناء الكنيسة :

إن التشكيلة الاساسية في هندسة الكنيسة المشرقية هي تحديد موقعين فيها ، يؤدّيان دور عرش الله السماوي ودور اورشليم الارضية . والموقعان الكنسيّان هما قُدس الأقداس حول المذبح في صدر الكنيسة من جانب ، والبيما من جانب آخر وهو منصّة واسعة يجلس عليها الإكليروس للقراءات في وسط الكنيسة . فالموقع الاول ، بحكم كينونته حول المذبح هو رمز لعرش الله في

اورشليم السماوية . والآخر بحكم ما يجري عليه من قراءات وكرازة هو رمز لأورشليم الارضية . فالتصميم الأساسي في الحركة الطقسية مبني على تفاعل وتجاذب هذين القطبين لكي تتم بينهما قصّة الفداء .

ولا شكّ أن القدّاس الإلّهي هو الرتبة المركزية في الطقسيّات ، وبه التعبير عن واقع الفداء بابلغ معانيه . ولذا فإن هذا التصميم الهندسي يلقى في القداس تطبيقه النموذجي .

القداس الكلداني في تصميمه الاصلي :

إن القداس يبدأ بحركته الاولى مع ترنيمة قدس الأقداس (عونيثا دقنكي) ، فينزل الإكليروس في تطواف يقودهم الى (البيما) حيث يمكثون حتى ترنيمة التقادم (عونيثا درازي) ومعها يعودون الى المذبح لإتمام طقس القربان . تلك هي الحركة الأساسية . ونحن اذا فحصنا نصوص المقطوعات الليتورجيّة التي ترد في هذه الرتبة ، لرأينا ان معانيها شديدة الارتباط بهذه الحركة نزولاً وصعوداً . وهي تعبّر عن الرموز التي ترافقها أثناء التطواف من حمل صليب وحرق بخور وإشعال شموع ... الخ ، بحيث ان معنى النصوص لا يكمل الاّ بالترابط مع هذه الحركة ، وتشير الآثار الادبية والعمرانية إلى استمرارية استخدام القنكي والبيما في موقعيهما ودوريهما الليتورجيين حتى مطلع القرن الرابع عشر . ولعل آخر ذكر لهذا الاستخدام ، في الآثار الأدبية ، هو ما ورد عند عمرو بن متى عن سيامة البطريرك مار يهبالاها سنة ١٢٨٣ انه «لما خرج من المذبح صاعداً الى البيم نُثر عليه من (مثاقيل) خفايف ذهب ودراهم فضة شيء كثير . وما كان لاحد في الهيكل موضع يقف من كثرة الشعب» (المجدل ، ص ١٢٤-١٢٥) .

ولا شكّ ان البيما اصابه من الخراب ما أصاب الأديار والكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية والثقافية على يد الحكام المغول اللاحقين .

انه لمن المؤسف أننا في العقود الأخيرة ، في الشرق والغرب ، في الموطن العراقي وفي ديار المهجر عوض ان نعيد الى كنائسنا أصالتها العريقة ورونقها الفريد ، أخذنا نخلع عنها حتى ما بقي فيها من اصالة وخصوصية . اذ اننا إقتصرنا اهتمامنا ، في افضل الحالات ، على إضفاء الطابع المعماري الشرقي على مظهر الكنيسة العام ، بدون ان نعير إهتماماً كافياً لهندستها الطقسية ، فدمجنا البيما بقدس الاقداس ، بل خلعنا عن (القنكي) ستارته المهيبة . واصبح مذبحنا وما يحيطه لا يفرق بشيء عن هندسة المذبح في الكنيسة الغربية . واضحت الرتبة الطقسية جامدة ، خالية من الحركة ، فتبلبلت معاني النصوص وضعف انسجامها ، وتعطلّت رموزها . فعسانا نُعيد النظر في مخطّطاتنا عند بناء الكنائس الجديدة ، لكي نعيد الى روحيّتنا المشرقيّة غناها ورونقها وحيويّتها الأصيلة .